

الخيال الرومانسى والإيمان بالروح

تحيط بفكرة الرومانسية فى أذهان الكثيرين ضبابية تفضى فى أغلب الأحيان إلى تصورات غير دقيقة خاصة فيما يتعلق بالشعر والشعراء. والظنون الشائعة حول الشعر الرومانسى توحى بأنه شعر مستغرق فى الذات يدور حولها ويعالج همومها بل ويهرب من مواجهة الحياة الواقعية طلبا لنوع مستحيل من البراءة أو الفطرة أو الاتحاد بالطبيعة أو الحب المثالى المخفق دائما أما الشعراء الرومانتيكيون فهم عند أصحاب الأفكار المتعجلة مجرد أشباح بشرية يعانون من الهزال البدنى والشروء الفكرى والإغماء العاطفى. والحقيقة أن مثل هذه الأفكار تشيع دائما فى مجال النقد لهذا التيار حيث تبدو الظواهر السلبية فى فترة انحسار التيار وكأنها هى جوهر طبيعته. ولقد كانت الرومانسية فى مطلع ظهورها ثورة أدبية عارمة جاءت لتطلق العاطفة من إسار قبضة التقاليد والعادات وحتمية المنطق وبرودة العقل. ولقد حاول الشعراء الرومانتيكيون فى أوربا. الإنجليز والفرنسيون والألمان أن يؤسسوا رؤية جديدة تماما فى ميدان التجربة الشعرية ومن أبرز عناصر هذه التجربة «الخيال الرومانسى» الذى اعتمدت عليه الرومانسية كطاقة خلاقة مبدعة بعد أن جعله الرومانسيون فى مركز القيادة بدلا من العقل يقول وليم بليك عن الخيال:

«عالم الخيال هذا هو عالم الأبدية. إنه الصدر الإلهي الذي سيضمنا إليه بعد الخلاص من جسدنا الطيني. عالم الخيال هذا لا نهائي وأبدى على حين أن عالم التكاثر أو العالم الطيني موقوت ومتناه. يوجد في عالم الخيال الحقائق الدائمة لكل ما نراه منعكسة على تلك المرآة الطينية في الطبيعة، كل الأشياء متضمنة أشكالها الأبدية في الجسم الإلهي». ويقول كولردج:

«أومن أن الخيال الأول هو القوة الحية والمحرك الأول لكل إدراك إنساني وأنه تكرر للعقل الأبدى للخلق في «أنا اللانهائي»، ويقول سير موريس بورا في كتابه «الخيال الرومانسي» والذي ترجمه الأستاذ إبراهيم الصيرفي:»

«والرومانسيون يواجهون تلك القضية وهو يعني مخلوقات الخيال في قوة وعزم وهم يصرون فضلا عن ابتعادهم عن التفكير في أن الخيال إنما يعالج ما لا وجود له على أنه إنما يكشف نوعا ما من الحقيقة وهم يرون أنه حين ينشط يرى أشياء يعنى العقل العادى عن رؤيتها وأنه يتصل اتصالا وثيقا بالبصيرة أو الشعور أو الحدس والحقيقة أن الخيال والبصيرة لا ينفصلان فى الواقع وإنما يكونان موهبة واحدة فى كل الأغراض العملية فالبصيرة توظف الخيال ليعمل وهو بدوره يزيد فى حدتها عندما ينشط، وهذا هو الغرض الذى كتب الرومانسيون على أساسه».

ولقد حرص الشعراء الرومانسيون على ما أسموه بالوحدة الشاملة بين الحواس بين المرئى وغير المرئى بين الجزئى والكلى بين ما هو محدود

وما هو مطلق وتحديث كولردج عن هذه الوحدة فى معرض حديثه عن ورد روث فقال :

«كانت وحدة الشعور العميق بالفكر الثاقب والتوازن الدقيق للحقيقة مع ملكة الخيال متحدة فى تشكيل المادة وهى فوق ذلك الهبة الأصيلة لنشر النعمة وتهيئة الجو مصحوبا بالعمق والارتفاع لأشكال العالم المثالى وحوادثه ومواقفه تلك التى طمست العادة لألأها وأطفأت شرارتها وجففت أنداءها فى نظر المشاهد العادى» ، ولقد كان إيمان وليم بليك يفوق إيمان كل الشعراء الآخرين حين يقول :

«إن قوة واحدة فقط هى التى تصنع الشاعر تلك هى قوة الخيال الرؤيا الالهية» ، أما جون كيتس فكان حبه للعالم المرئى أعظم من حب بليك له ولكنه لا يفترق عنه فى الاعتقاد بأن الحقيقة المطلقة لا توجد إلا فى الخيال وحده ، ويصور كيتس ما يعنيه بالخيال فى قصيدة «النوم والشعر» والتى يتساءل فيها عن العلة فى فقدان الخيال لقوته القديمة ولمجاله ، يقول جون كيتس :

أهناك فى وسع الإنسان اليوم دائرة
تبلغ من الضيق بحيث لا يستطيع الخيال
السامى أن يحلق فيها حرا
كما اعتاد قديما؟ حيث يعد جياده
وينطلق مخترقا الضوء صانعا الأعاجيب
فوق السحب؟ ألم يرنا جميعا ذلك
من الفضاء الأبدى الصافى
إلى الأنفاس الصغيرة للبراعم الجديدة التى تتفتح؟

ما لجبهة جوبيتر العريضة من مغزى
إلى مراعى أبريل الخضراء

أما بيرس بيش شيلي فرغم اختلافه عن أضرابه من الشعراء
الرومانسيين كما يقول سير بورا إلا أنه لا يقل إيمانا بالخيال ويعبر عن
نظريته الشعرية فى كتابه «برومثيوس طليقا» حين يقول :

لسوف يرقب من ساعة الفجر حتى الغروب
أشعة الشمس المنعكسة فوق البحيرة
الذحلات الصفراء فوق براعم العليق
لن يصغى ولن يرى أى أشياء تكون
ولكنه يستطيع من خلال تلك المخلوقات
أن يخلق خلقا أكثر صدقا من الإنسان الحى

وشيلي يرى :

«إن الشاعر لا يدرك الحاضر إدراكا قويا كما هو فحسب، ولا هو
يكشف تلك القوانين التى يتحتم أن تنتظم الأشياء الحاضرة فى داخلها
فقط، ولكنه يدرك المستقبل فى الحاضر وأفكاره هى بذرة الزهرة
والفاكهة للوقت الماضى. إن الشاعر يشترك فى الأبدى واللانهائى
والواحد».

ولا شك أن هؤلاء الشعراء الذين حاولوا البحث عن الحقيقة من خلال
تفجير قوة الخيال وتحطيم جدران العقل الكلاسيكى وخلق مجال جديد
للرؤية الشعرية هؤلاء الشعراء لم يكونوا أبدا مجرد قطط عمياء تبحث عن
ذواتها بل كانوا قادة شجعان كما قال بورا عنهم :

«كانت تلك الريادة الجريئة إلى عالم المجهول والتي يقودها إخلاص مدفق وإيمان عميق بعيدة كل البعد عن أن تكون استغراقا عاطفيا في الذات فقد كان هؤلاء الشعراء مقتنعين بأنهم يستطيعون الكشف عن أشياء بالغة الأهمية وأنهم يملكون بالشعر مفتاحا لا يتمتع به الناس. وقد كانوا مهيين لتكريس ذواتهم لهذا العمل وقد دفعوا الكثير في سبيله بوسائل مختلفة. إن أهم ما يميز الحركة الرومانتيكية في الشعر العالمي أنها أضعفت من الإيمان المطلق بالعقل ودعمت الإيمان المطلق بالروح».

